

لم يتغير شيء من عهد عاشور الناجي. خلفه شمس الدين راعيا للحرافيش شاكما للسادة والأعيان وثابر الفتوة على عمله سواقا للكارو، كما اشتغل كل من رجل من رجاله بحرفته. ولم يتخل عن شقته الصغيرة مسكنا وسد أذنه دون همسات امه المتوسلة. امتلأت أعطافه بالعظمة الحقيقية وروى ظمأ قلبه بحب الناس وإعجابهم، وسرعان ما صار من رواد الزاوية وأصدقاء الشيخ حسين قفة. ومن أموال الإتاوات جدد أثاث الرواية، ورحب باقتراح للشيخ حسين قفة فأنشأ كتابا جديدا فوق السبيل. ولم يغفل عن مسؤوليته حيال الحارة والناس أبدا. شعر بنقل الأمانة وخطورتها شأن المخلصين من الرجال. ولا شك أن فتوات الخيارات المجاورة قدم استردوا أنفاسهم باختفاء العملاق المهيّب، وراحوا يتحشرون ببعض الباعة المتجولين من أبناء الحارة. فلكي يؤكد قوته وينفض عنها شبهاً الظنون، ولكي يثبت أن ملاحته ورشاقتها لا ينقصان من فتوته، قرر أن يتحدى أقوى الفتوات وهو فتوة العطوف. وتحين فرصة زفة عطوفية فتعرض لها في ميدان القلعة، فدارت بين الفريقين معركة حامية انتصر فيها انتصارا حاسما اجتاحت أنبأؤه الحارات جميعا. فأيقن كل من داعبه أمل التحدي أن شمس الدين لا يقل عن عاشور قوة وبأسا. هكذا حافظت الحارة على نظامها المثالي في الداخل وعلى سمعتها خارج نطاق الميدان. رغم ذلك رجع شمس الدين من معركة العطوف مبلبل خاطر. الزوبعة الثملة بالقوة والنصر تتشرب بالأتربة والقاذورات. لقد قال له فتوة العطوف وهو يتوثب للالتحام. - أقدم يا بن الزانية. أقدم يا بن عاهرة خمارة درويش! وملأ سبابه الأسماع. هلل له رجاله وزمجر الآخرون. أهو محض سباب مما تفتتح به المعارك؟ أم هو تاريخ يعلمه الجميع ويجعله هو بحكم حداثة سنه؟ إن امرأة يختارها عاشور الناجي زوجة له ووعاء لذريته لا يمكن أن ترتقي إليها شبهة من الشبهات. واطمأن قلبه، لم يسترد الصفاء، وهامت في صدره الهواجس مثل السحائب في اليوم المطير. وفي وقت راحته جعل يسترق النظرات إلى قلة. إنها في الأربعين أو دون ذلك. مليحة ملاحه فائقة. صغيرة الجسم رشيقة فاتنة. عيناها تنفثان سحرا خالصا. لا يمكن أن يتصور ذلك، والويل لمن تسول له نفسه اقتحام محرابها! كم تعلق بها لدرجة الهوس حتى قال له عاشور الناجي يوما: - الرجل الحق لا يتعلق بأمه مثلما تفعل. واستصحبه معه وهو صغير، فكان يأكل وينام فوق الكارو، ودار في فلك أبيه منتزعا من الأحضان الدافئة. ترى ماذا شهدت خمارة درويش؟. هل يوجد رجال يعرفون من خفايا أمه ما لا يمكن أن يعرف؟! كان يمضي بالكارو نحو الميدان فاعترضته معركة عجيبة ناشبة بين فتاة وفتى: كانت الفتاة تشب كالنمر فتلطم الفتى، قاذفة إياه بسيل من الشتائم، والناس من حولهما يتفرجون ويتضاحكون. ولما رأى الناس شمس الدين حيوه، وراحت الفتاة تلتقط ملأيتها من الأرض وتلتف بها وهي ترامقه في حياء. أعجب شمس الدين بحيويتها، ونضارة وجهها، فتمتم باسمها: - عجيبة. ألتذكروني يا معلم؟ كنا نلعب معا. - ولكنك لم تتذكرني. - تغيرت كثيرا، أنت ابنة دهشان؟ فحنّت رأسها وذهبت. ابنة معاونه دهشان، وأشعلت حواسه فتدفق شبابه مثل أشعة الظهيرة. وعند مشارف الغورية رأى عيوشة الدلالة وهي تشير إليه تتوقف. سيدة ذات بهاء يلفت الأنظار بملاءتها الكريشة وعروس برقعتها الذهبية، وجسمها المدمج الريان. وثب إلى مقدمة الكارو، وهو يتمنى لو يخطف من المرأة نظرة أخرى. وجعلت عيوشة تقول: ما أجمل أن تسوق الكارو يا فتوتنا وأنت إن شئت أن تعيش حياة الوجهاء ما منعك مانع! إنه يسعد بدفء الحب، ويمتلئ باريح العظمة الحقيقية، حتى غادرت العربية في درب الأحمر. وأتبعها ناظريه وهي تمضي نحو رواق المشايخ. ولبثت عيوشة بمحلها فنظر نحوها متسائلا فتمتمت: مضت العربية وهو صامت، وإذا بالعجوز تسأله: - ألم تر من قبل ست قمر؟ فشكر للمرأة فتحها الحديث وأجاب: - كلا. من حارتنا؟ - نعم، فتساءل: - و لم لا تستقل الحانطور؟